مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية | المجلد 07 / العـــدد: 04(ديسمبر 2023)، ص 184-196

الشيخ علي بن يَخلف الدَّرجيني ودوره في نشر الإسلام بمملكة مالي

Ali bin Yakhlif Al-Dargini and his role in spreading Islam in the Kingdom of Mali

د.الزرويل صالح*
جامعة غرداية(الجزائر)
salah.zerouil@univ-ghardaia.dz

تاريخ الاستلام: 2021/11/09 تاريخ القبول: 2023/07/14

الملخص:

انتشر الإسلام في بلاد السودان الغربي بفضل المسلمين الأوائل منذ القرن2هـ/8م، الذين آلوا على أنفسهم مسؤولية دعوة الشعوب إلى عبادة الله، وقد كان النشاط التجاري الرابط بين طرفي الصحراء خير سبيل للتعريف به وبقيمه السمحاء. فقد كان للإباضية دور بارز في أسلمة ممالك بلاد السودان الغربي، كما قام إخوانهم إباضية المشرق بنشر الإسلام في ربوع شرق إفريقيا- تجار عُمان بخاصة-، ومارسوا دعوتهم على شكل أفراد، أغلبهم من العزابة وكانوا تجاراً فقهاء، استطاعوا أن يؤثّروا في الملوك قبل الشعوب بأخلاقهم ومعاملاتهم، والنتيجة انتشار الإسلام في وقت وجيز، وقائمة المشايخ التُّجار الإباضيين طويلة نورد في بحثنا أشهرهم وهو الشيخ أبو الحسن علي التيمجاري الدرجيني(ق6هـ/12م) جدّ الدرجيني صاحب الطبقات، الذي أسلم على يديه المسلماني ملك مملكة مالي وشعبه، فقد كان أنموذجا للفقيه الدّاعي والتاجر الإباضي الذي سخّر علمه وماله في سبيل نشر الإسلام.

وتناولنا للدرجيني يكون في الحديث عن سيرة حياته، وعلاقته بملك مملكة مالي، وكيف استطاع أن ينقل المنطقة من أغلبية وثنية إلى أغلبية مسلمة، لذا فالمنهج التاريخي والمنهج الوصفي خير ما يمكن استعماله في مثل هذه المواضيع، والموضوع بحاجة إلى بحث مستفيض فالمصادر غير الإباضية لم تتعرض له سوى البكري، الذي لم يذكره باسمه في نصه، لذا وجب البحث واستقصاء جميع المصادر التي تحدثت عنه.

كلمات مفتاحية: أبو الحسن الدرجيني، الإباضية، نشر الإسلام، مملكة مالي، القرن 6هـ/12م.

Abstract:

Islam has spread in the western Sudan with the first Muslims since the 2nd/8th centuries, who have taken responsibility for calling on peoples to worship God, leaving what else to be done.

Trade has been the best way to publicize it and its tolerant values. Ibadia played a prominent role in the Islam of sub - Saharan kingdoms or the Sudan, and their Al - Mashreq brothers spread Islam in Eastern Africa - especially the traders of Oman. They were invited in the form of individuals, most of whom were celibate and legal tradesmen, who were able to influence the kings before the people with their morality and dealings. The result was the spread of Islam in short time. Dargini's big father, the author of the Tabaqat, who was handed over by the Muslim King of Mali and his people.

Key words: Abul Hassan al-Dargini, Ibadia, Propagation of Islam, Kingdom of Mali, 6AH/12AD.

*الزرويل صالح

- **مقدمة:**

انتشر الإسلام في بلاد السودان بفضل المسلمين الأوائل الذين تحمّلوا مسؤولية دعوة شعوبها إلى عبادة الله، وترك ما سوى ذلك، وقد كانت التجارة خير سبيل للتعريف به، وبرسالته عبر القرون، ففي الفترة الوسيطة اجتهدت الدول المتعاقبة على حكم بلاد المغرب في التنافس على إيصال الرسالة المحمدية سلميا، عن طريق تعويض السيف بالدرهم وبالمعاملات التجارية لكسب ودّ تلك الشعوب.

والإباضية في هذا الإطار من الذين أسهموا عبر تاريخهم الطويل في أسلمة مملكتي غانة ومالي أو بلاد السودان، كما قام إخوانهم إباضية المشرق بنشر الإسلام في ربوع شرق إفريقيا-تجار عُمان بخاصة- وأغلبهم تجار فقهاء، منهم من مارس التجارة عبر القوافل التي تشق الفيافي ذهابا وإيابا، ومنهم من آثر الاستقرار في تلك الربوع، تاجرا وداعيا إلى الله، ومن جملة هؤلاء نذكر: أبا يحي بن أبي القاسم الفرسطائي (ق3هـ/9م) الذي كانت له رحلة إلى بلاد السودان، التقى فيها بأحد ملوكها، ودعاه إلى الإسلام فأسلم وحسن إسلامه، وأبو موسى هارون بن موسى بن سدرين الحامّي الوسياني الذي سافر(ق5هـ/11م) إلى غانة[1] للتجارة، واستقر بها إلى وفاته، وأبو نوح سعيد بن يخلف المدوني(ق4هـ/10م) ويُعرف بأبي نوح الصغير، وغيرهم كثير ذكرتهم كتب السير الإباضية.

ولقد اشتهر منهم الفقيه التاجر الشيخ أبو الحسن علي بن يخلف الدرجيني الذي لم تُشر إليه المصادر كثيرا، فالموضوع ذو أهمية كبيرة، تكمن في إبراز دور الإباضية السبّاقين إلى نشر الإسلام في تلك الربوع، والتعريف بأحد أهم تجّارها الدعاة، فمن هو أبو الحسن علي الدرجيني، وكيف استطاع إدخال ملك مالي ورعيّته في الإسلام، وقد استخدمنا المنهج التاريخي والوصفي والتحليلي للوصول إلى حيثيات النص الوارد عند الدرجيني والبكري.

1. ابن عائلة الدرجيني الشهيرة:

هو أبو الحسن علي بن يخلف بن يخلف الدرجيني موطنا، نسبة إلى قرية درجين في بلاد الجريد، البربري قبيلة، الإباضي مذهبا، التِيميجاري أصلا، نسبة لقرية تِيميجَار بجبل نفوسة(غرب ليبيا)، وهي أولاد بوجديد تقع في صدر الجبل من الجهة الشمالية الشرقية لوادي أمسين، تحدّها من الجنوب قرية إمرساون والكرومة، ومن الشمال منطقة أولاد بو جديد الحديثة، ومن الغرب يحدها مجرى وادي أمسين، من معالمها التاريخية مسجد الشيخ علي بن يخلف التيميجاري[2]، هو إذن سليل أسرة ذات سمعة طيبة، اشتهرت بالاعتدال وكثرة من أنجبت من العلماء، لم يُعرف على وجه التحديد تاريخ مولده مثل باقي المشايخ، الذين لا تكاد تعرف تاريخ وفاتهم فضلا عن تاريخ مولدهم، وهي ميزة عامة تميّز كتب السير والتراجم والطبقات في بلاد المغرب.

يصنّفه حفيده الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد بن علي الدرجيني(ت670هـ/1271م) في كتاب الطبقات ضمن شيوخ طبقة النصف الثاني من المائة السادسة(550-600هـ/1155-1203م)[3]، وفي رواية عن جدّه نجد أنه كان حيّاً سنة575هـ/1179م،

1- مملكة غانة(3-5هـ/ 9-11م): هي تقريبا دولة مالي اليوم، قد تفككت سنة 469هـ/1076م، على أيدي المرابطين، مما دفع الأقاليم الإفريقية التي كانت تحت لوائها إلى تكوين كيانات مستقلة، ونتج عن صراعها من أجل السلطة أن آل الأمر إلى قبائل الماندينجو أو الماندي التي يرجع إليها الفضل في تأسيس مملكة مالي الإسلامية. عابد سفيان- مملكة مالي في عهد الملك منسى موسى(712-738هـ)- مجلة دراسات افريقية- مج3، ع7- جامعة الجزائر2- ماي2019- ص151.

2 - محمود حسين كوردي- الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراتها على بلاد السودان الغربي خلال القرون2-8هـ/8-14م- مؤسسة تاوالت الثقافية-الولايات المتحدة الأمريكية- 2008- ص92.

3- مجموعة مؤلفين- معجم أعلام الإباضية(قسم المغرب)- جمعية التراث- غرداية- 1999- 616/3.

عندما زار مالي والتقى بملكها الذي أسلم على يديه، كما أن مكان ولادته غير معروف أيضا، إذ يُحتمل أنه نشأ وترعرع بمنطقة درجين ببلاد الجريد(جنوب تونس حاليا) حيث سُكنى العائلة، وهي المنطقة التي كانت آهلة بالإباضية في العصور الوسطى.

ينتمي أبو الحسن إلى عائلة علم وتجارة، فأبوه الشيخ يخلف بن يخلف النفوسي التِّميجاري العزّابي من الطبقة الثانية عشر حسب حفيده الدرجيني(550-600هـ/1155-1203م)، وهو فقيه وقاض ونسّابة، من جبل نفوسة، ارتحل منه واتجه صوب نفطة بالجريد التونسي حيث كانت إقامته هناك، وله فيها حلقة علم، يجتمع حوله طلبة العلم من كل حدب وصوب لتلقي العلم على يديه، وله بها ضيعات وحقول، وقد اشتهر بالورع والتقوى والذكاء، والفطنة والسخاء والكرم، وتصفه المصادر الإباضية بأنه كان على قدر كبير من الحكمة والدراية، وكان يحكم في الجراحات، ويقصده الجميع ولا يرغب عنه أحد لمخالفة مذهبه، ولا يردّ عليه قوله[1]، من آثاره ألفاظ من "**منثور الحِكم**"، لو قُيّدت لصارت دواوين[2]، فالشيخ علي بن يخلف سليل أسرة عريقة من العلماء الأفذاذ، الذين ورثوا العلم أبا عن جدّ.

خلّف أبو الحسن علي من الأولاد حسب ما ذكرته كتب السير الإباضية، الشيخَ أبا الربيع سليمان بن علي بن يخلف النفطي نسبة إلى نفطة التي استقر فيها، وهو شيخ فاضل من العزابة ذو سخاء ونزاهة نفس وورع، متمكنا من علم الفرائض، ولا تشذ عليه مسألة من مسائل الأصول والفروع في مذهبه، وله أشعار في الوعظ والحكم، منها قصائد بالدارجة وقصيدة باللسان البربري، وشعره الفصيح لا يرقى إلى شعر ولده سعيد أو حفيده أحمد، كما ترك إلى جانب أشعاره، مؤلفات منها "**كتاب في علم الكلام**" في مجلدين، و" **كتاب في الفقه**"[3] ، وقد تخرّج على يديه تلامذة من وادي سوف وورجلان والزاب وغيرها[4].

لم تذكر المصادر تفاصيل أخرى عن أبي الحسن علي ولا عن أسرته، فلا يُعرف مراحل تعلمه ولا شيوخه الذين تعلّم على أيديهم، ويمكن استنتاجهم من طبقات حفيده أحمد، وبما أنه كان حيّاً سنة 575هـ/1179م، فمشايخ المنطقة الذين عاشوا في النصف الأول من القرن الأول أغلبهم هم مشايخه.

لم تسعفنا المصادر الإباضية وطبقات الدرجيني بخاصة، بتاريخ وفاة الشيخ أبي الحسن علي بن يخلف الدرجيني، ولا عن مكان ضريحه، وبما أنه من الطبقة الثانية عشر (550-600هـ) فمن المحتل أن تكون وفاته في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري، 13-14م.

2. أبو الحسن علي الفقيه التاجر:

لم تنقطع التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها منذ القرن الثاني الهجري، الثامن للميلاد، فالدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب أدناه وأوسطه وأقصاه اهتمت بالتجارة الخارجية البرية منها والبحرية، والتجارة الإباضية تحت حُكم تلك الدول لم تتوقف مع بلاد السودان الغربي حتى بعد سقوط الدولة الرستمية سنة296هـ/909م، التي ازدهرت فيها التجارة مع ممالك جنوب الصحراء أيّما ازدهار،

1- صالح باجية- الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى- دار بوسلامة للطباعة والتوزيع- تونس- 1976- 70/1.

2- أبو العباس أحمد الدرجيني- طبقات المشايخ بالمغرب- المطبعة العربية- غرداية- د.ت- 336/2.

3- أبو العباس أحمد الشماخي- كتاب السير- دار المدار الإسلامي- تونس- 2009- 656/2، علي يحي معمر- الإباضية في موكب التاريخ(تونس)- المطبعة العربية- غرداية- 1987- ص570، صالح باجية- المرجع السابق- ص202.

4- مجموعة مؤلفين- المرجع السابق- 432/3.

وعرفت أسواقها رواجا وحركية تجارية، قصدها أصحاب المال من شتى البقاع، فربطت أسواق تيهرت بينها وبين فاس وسجلماسة غربا، وتلمسان والساحل شمالا، والقيروان والجريد وجربة ونفوسة شرقا، وورجلان وتمبكتو وكانم وأودغست وتادمكة وغيرها جنوبا[1]، فعديد من التجّار الذين كانت قوافلهم تجوب الصحراء ذهابا وإيابا محمّلة بشتى أنواع البضائع، من سوق إلى آخر، مقيمة ومرتحلة[2] ، رغم المخاطر الجسيمة والمشاق والخسائر التي تتكبدها أثناء الرحلة في عبور الصحراء، لكن لم تذكرهم كتب الرحلات والجغرافيا والتاريخ عموما بأسمائهم وإنما جمعتهم بمذهبهم، ولم تفصّل في تجارتهم[3]، وأعمالهم الدعوية التي قاموا بها، وكان لهم فضل السبق في نشر الإسلام بتلك الربوع، إذ الهدف المنشود لدى جميع الطوائف والفرق واحد؛ وهو تبليغ الرسالة المحمدية إلى جميع الأجناس والأعراق والتنافس على ذلك ابتغاء رضوان الله، وثواب ذلك، للحديث الذي رواه سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: "لأن يهدي الله رجلا على يديك خير من حمر النعم أو خير مما طلعت عليه الشمس"[4].

تميزت كتب سير وطبقات الإباضية بأنها تضمّنت سير وأخبار الكثير من الفقهاء الذين تردّدوا على الصحراء منذ القرن 3هـ/9م، وقد ربطت أولئك الفقهاء صلات قوية بتلك المناطق، وكانت الدعوة إلى الإسلام من أقوى الأسباب، فقد كانت التجارة عاملا هاما، حيث مثّلت المهمة الرئيسية لمعظم أولئك الذين أرّخت لهم كتب الطبقات، وكانوا يستقرون لفترات طويلة في مراكز وممالك جنوبي الصحراء، ويتجولون في الأماكن الداخلية من إفريقيا[5]، وتُعتبر أخبار أبي زكريا الورجلاني، وسير الوسياني، وطبقات الدرجيني من أقدم المؤلفات التي تضمنت أخبار الصحراء والأنشطة الدعوية والثقافية والتجارية.

امتدت تجارة الشيخ أبي الحسن علي بن يخلف إلى بلاد غانة –هي تقريبا دولة مالي اليوم–، التي تفككت سنة469هـ/1076م، على أيدي المرابطين، مما دفع الأقاليم الإفريقية التي كانت تحت لوائها إلى تكوين كيانات مستقلة، ونتج عن صراعها من أجل السلطة أن آل الأمر إلى قبائل الماندينجو أو الماندي التي يرجع إليها الفضل في تأسيس مملكة مالي الإسلامية، وكان الدرجيني يُمارس تجارته في هذه المنطقة، تلك التجارة التي كانت تُدرّ عليه أموالا طائلة، وكان يُنفقها في سبيل طلبة العلم، والاحتياجات الضرورية لحِلق العلم في درجين وغيرها، ومثلما كان يفعل آباؤه وأجداده، فضلا عن تحريك عجلة النشاط الاقتصادي في ورجلان وأريغ وسوف وبلاد الجريد.

كان الدرجيني السبب في هداية ملك مملكة مالي إلى الإسلام سنة 575هـ/1179م، تلك المملكة التي يدعوها البكري باسم: ملل، أو ملّي، أو ملّ، عند بعض الجغرافيين، وهي اسم مدينة ودولة في آن واحد، كانت تابعة لمملكة غانة أو إمبراطورية غانة قبل أن تنفصل عنها وترثها[6]، وقيامه بذلك لعلمه وفقهه، وذلك عندما طلب منه هذا الملك أن يدعو ربه لينزل من السماء مطراً، بعد أن أصابهم قحط شديد، فاستغاث لهم الشيخ علي بن يخلف بصلاة الاستسقاء، فسقطت الأمطار وعمرت الوديان والأنهار، فآمن الملك ورعيته من بعده[7]، وكانت تلك من كراماته المذكورة والمتداولة في كتب السير الإباضية وغيرها.

1- إبراهيم بحاز- الدولة الرستمية (دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية)- وزارة الشؤون الدينية والأوقاف- قسنطينة- 2015-ص 289.

2- مسعود مزهودي- جبل نفوسة في العصر الإسلامي الوسيط(21-442هـ)(642-1053م)- مكتبة الضامري- السيب- 2010- ص312.

3- محمد بن عبد المنعم الحميري- الروض المعطار في خبر الأقطار- تحقيق إحسان عباس- مكتبة لبنان- بيروت- 1984- 106/1.

4- أخرجه البخاري ومسلم- صحيح ابن حبان- ص6932.

5- علي يحي معمر- المرجع السابق- ص571.

6- إبراهيم بحاز- المرجع السابق- ص299.

7- مجموعة مؤلفين- المرجع السابق- 433/3.

3. مآثره وسجاياه:

كان الشيخ أبو الحسن علي بن يخلف عالما تقيا، مستجاب الدعاء، محسنا لمن أساء، يدعو الخير من أقبل يسعى، ومن أدبر وتولّى[1] (الشماخي،2009،658/2)، جمع بين ثراء العلم وثراء المال، وهي صفة قلّما نجدها عند العلماء، الذين تجد أغلبهم زاهدين في الدنيا، مقبلين على الآخرة، لكن الشيخ الفقيه أبا الحسن علي بن العزّابي قد أنفق من علمه وماله، واستعمل ماله في علمه.

كما كان من علماء الإباضية النابهين المرموقين وكان مثل أبيه في السخاء والكرم والعلم والتقوى، فقد "جمعه ذات مرة مجلس مع أبي القاسم العمودي (القمودي) الذي كان من المتصوفة، فسأل الشيخُ أبو القاسم القاضيَ عمرو بن زرعة النفطي إن كان الشيخ أبا الحسن يُبغِض عليًّا، فأجابه الشيخ أبو الحسن وقد سمعه: من أنبأك هذا يا شيخ؟ قال: كذا يذكرون عنكم، قال: فهل رأيتَ أحدا يسمّي ولده باسم عدوّه؟ قال: لا، قال: كان أبي من فقهاء الوهبية، وقد سمّاني عليّاً،....وانفصل ابن العمودي يحمده ويحمد مذهبه"[2].

من خلال هذا الحوار يتبيّن حلمه وهدوءه، وحسن مناظرته، لمن جاء يسأل عن دين الوهبية من مصادره، ومن النص أيضا نستشف مدى الصراع المذهبي القائم بين الإباضية وغيرها من المذاهب، وإن كان النص يشير إلى جدال بين فقيهين من الفقهاء أحدهما إباضي والآخر على غير ذلك، وأفحمه بجوابه، حتى أن الدرجيني قال بعد ذلك على لسان ابن العمودي: "ثم أخذ معه في مذاكرة تشفي الصدور، حتى استمال قلبه وملك لبّه، فجعلت تلك الظلمة تنجلي حتى صرتُ في ابتهاج عظيم"[3]، وذلك لما رأى منه من حكمة ودلائل واضحة، عكس ما كان يسمع أو يروّج له، زد على ذلك تحلّيه بالصبر على الأذى وضبط النفس والتحمّل[4].

كان الشيخ أبو الحسن علي بن يخلف التيمجاري من كبار التّجار المياسير، يزاول تجارته بين بلاد السودان وبلاد الجريد، وقد ورثها عن أبيه الشيخ يخلف بن يخلف فسار على ذلك الدرب، وهنا نورد الرواية التي تشير إلى تجارته ودوره في إسلام ملك مالي ورعيته كاملة كما ذكرها الدرجيني(ت670هـ/1271م)، إذ قال: "وحدّث جماعة من أصحابنا أن علي بن يخلف سافر إلى دواخل غانة[5] سنة575هـ/1179م، فانتهى إلى مدينة مالي[6] ، فأكرمه مَلِكها غاية الإكرام وكان الملك مشركا وتحته مملكة عظيمة، كل أهلها مشركون، وتحته 12 معدنا يستخرج منها الذهب التبر، فكان الملك قلّما جلس مجلسا إلا أجلسه معه، إكراما له، وكان يتعجب من خَلقه وخُلقه، وكثرة عبادته، ومحافظته على دينه، حتى عقد النية على الانفصال من مالي وقد قضى حاجته.

وكان ذلك في سنة قحط شديد، فشكت الرعية ما أصابهم إلى ملكهم، فأمرهم بالاستسقاء، فجعلوا يستسقون ويتقربون بقربانهم التي يعتادونها في ملتهم، وذبحوا أنواع الحيوان من البقر والغنم والحمير، حتى الأُناسي والسنانير، فلم يسقوا.

فقال الملك لعلي: ألا تدعو إلهك الذي تعبد أن يسقينا؟ فقال له: لا يسعني ذلك وأنتم تكفرون به وتعصونه وتعبدون غيره، فإن آمنتم به وأطعتموه فعلت ذلك ورجوت أن يسقيكم.

1- أبو العباس الشماخي- المصدر السابق- 658/2.

2- أبو العباس أحمد الدرجيني- المصدر السابق- 339/2-340.

3- نفسه- 340/2.

4- علي يحي معمر- المرجع السابق- ص571.

5- سفيان عابد- المرجع السابق- ص151.

6- أبو عبيد الله البكري- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب- دار الكتاب الإسلامي- القاهرة- د.ت- ص178.

فقال له الملك: علّمني الإسلام وفرائضه حتى أتابعك عليه، وتستسقي لنا، فعلّمه كيف يقرّ بالشهادتين فعلمه إياهما.

ثم قال: اصحبني إلى نهر النيل ففعل، فعلّمه كيف يتطهّر فتطهّر، ولبس ثيابا طاهرة ورقى به ربوة فوق النيل فعلّمه الصلاة فصلّى، ثم قال: إن أنا صليت فافعل ما تراني أفعل، وإذا دعوتُ فقل آمين، فباتا ليلتهما في عبادة وضراعة إلى الله.

فلما كان بعد صلاة الصبح أنشأ الله تعالى سحابة، فما حاولا الانحدار من الربوة حتى حالت السيول بينهما وبين المدينة، فجيء لهما بزورق في النيل، فركبا حتى دخلا المدينة، ودامت السحابة سبعاً غير مُقلِعة تسيح ليلا ونهارا، فزادت المؤمن إيمانا واستدعت إيمان الكافر.

فلما رأى الملك[1] صُنع الله تعالى دعا جميع أهل بيته إلى الإسلام، فأجابوا ثم دعا أهل المدينة فقالوا نحن عبيدك فأجابوا، ثم دعا ما دنا من المدينة من رعيته فأجاب أكثرهم، ثم دعا الأقصين فقالوا: نحن عبيدك ولك منا الطاعة، وتتركنا على ما ألفينا عليه آباءنا فسمح لهم، ثم حكم بأن المدينة لا يدخلها إلا من آمن بالله وبرسوله، ومتى رُؤي فيها كافر قُتِل، ثم قال له: عَلِّمني القرآن وشرائع الإسلام، فجعل يُعلمه حتى تعلم جملة ينتفع بها"[2]، ويضيف الشماخي للرواية قائلا: "وهذا سبب دخول الإسلام إلى بلاد السودان بغانة وما يليها، وتسامعت بهم المخالفون، فقصدوها من كل أوب، فردّوهم إلى مذهبهم"[3]، وهناك اختلاف في اسم الملك الذي أشهر إسلامه أمام الدرجيني، فقد ذكره البكري(ت487هـ/1094م) في كتابه المغرب باسم: المسلماني وصار اسماً لملوكهم من بعده[4]، في حين أن رزق الله يحتمل أن اسم الملك هو: منسا نوفرن تراورا[5].

4. دراسة تحليلية لنص الدرجيني:

رغم ما في النص من صبغة الأسطورة والكرامة، إلا أن كتب السير والتراجم في بلاد المغرب تعجّ بمثلها، منها ما يمكن تصديقه، ومنها ما لا يمكن للعقل البشري استيعابه، ويمكننا من هذا النص تحليل واستخلاص الكثير من الجوانب المختلفة مع المقارنة بينه وبين ما أورده البكري في مسالكه، ونتناول ذلك في النقاط التالية:

4.1. في الجانب المنهجي:

لم يعتمد أبو العباس أحمد الدرجيني على مصدر مكتوب في روايته، فعبارة "حدّث جماعة من أصحابنا"، تفيد بأن مصدره شفوي، متناقل جيلا بعد جيل، وكأنه خبر معروف متداول بين الناس والمشايخ والطلبة بخاصة، والأصحاب يقصد بهم أتباع الإباضية، وقد يكونون من التجار الذين اعتادوا التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها، مما يؤكد عدم زيارة الدرجيني الحفيد صاحب الطبقات لهذه المنطقة، كما لم يزرها من قبله أبو عبيد البكري صاحب كتاب المغرب الذي دوّن كتابه في قرطبة الأندلسية، حيث كانت سجلات ووثائق حكام الأندلس من بني أمية تحت تصرفه[6]، ومن الرحالة والجغرافيين الذين كتبوا عنها وكانت لهم أيام بها نذكر: ابن حوقل في القرن4هـ/10م، وابن بطوطة في القرن8هـ/14م، والحسن الوزان أو ليون الإفريقي في القرن10هـ/16م.

1- أبو عبيد الله البكري- المصدر السابق- ص178.

2- بهاء موسى حبيب- انتشار الإسلام في مملكة مالي- مجلة مركز دراسات الكوفة – ع16- كلية التربية للبنات- جامعة الكوفة- جانفي2010- ص11.

3- أبو العباس أحمد الشماخي- المصدر السابق- 660/2.

4- أبو عبيد الله البكري- نفسه- ص178.

5- أحمد مهدي رزق الله- حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات- الرياض- 1998- ص203.

6- أحمد مهدي رزق الله- نفسه- ص157.

النص الوارد عند الدرجيني أطول وأكثر تفصيلا من الذي ورد عند البكري، إذ به توضيحات هامة لم يشر إليها البكري في نصه، إما تجنبا للإطناب، أو قد نقلها كما وردت إليه، رغم أن نصيهما يفتقدان إلى العديد من التفاصيل المهمة، التي بها نقف على حقيقة إسلام ملك مالي وشعبه.

كما أن الحادثة الواردة جاءت بأسلوبين مختلفين عند البكري والدرجيني، فالأول قد أوردها بشكل سردي قصصي، على غرار سائر أخبار كتابه، وكأنه لا يريد الإطناب وذكر تفاصيل الحادثة، في حين أن الثاني جاءت بأسلوب الحوار، بين سائل ومجيب، في أسلوب مشوّق للقارئ، بتفاصيل أكثر دقة، وبعبارات واضحة مفهومة، ولا ندري إن كان الدرجيني الحفيد صاحب الطبقات هو الذي أورد وتصرّف في هذا الحوار أي من إنشائه، أم هو ما سمعه من مصادره.

4.2. في المضمون:

تتفق رواية الدرجيني والبكري في عناصرها الأساسية مثل الاتفاق على وقوع الحدث في مالي والطريقة التي أدت إلى إسلام الملك، لكن الاختلاف بينهما في مصدر رواية كل منهما، فاسم الشيخ علي بن يخلف غير مذكور عند البكري[1]، باسمه وإنما بعبارة: ضيف من المسلمين، ومصطلح "ضيف" تعني أنه زائر، وليس بتاجر يُزاول تجارة معتادة في المنطقة، وأنى لزائر من أول زيارة أن يؤثر في ملك ومملكة من أول يوم، ولا ندري سبب عدم ذكر اسمه عند البكري، وقد يكون للخلاف المذهبي سبب وراء ذلك، أو أنه أخذ الرواية مشافهة ممن كان يرتاد تلك المنطقة من التجار، ولم يذكر له اسم الشخص.

ومن جهة أخرى فقد أورد البكري اسم الملك وسبب تسميته وهو المسلماني، وذلك ما لم يذكره الدرجيني، في حين أن رواية الدرجيني تفيد تردّد أبي الحسن على المنطقة، مما جعل الملك يقرّبه إلى مجلسه، ويُكرمه أحسن إكرام قبل إسلامه، ويبدو أن رواية الدرجيني أوثق من نظيرتها عند البكري، فالخبر قد تم تداوله من جيل لآخر حتى وصل الشيخَ أبا العباس أحمد الدرجيني وقام بتدوينه في طبقاته، ومن جهة أخرى فإن اسم البلد لم يكن ثابتا عند البكري الذي سمّاه: ملل في زمانه(ق5هـ)، في حين ورد عند الدرجيني مالي(ق7هـ).

1.4.2. الجانب التأريخي:

من المهم جدا أن الدرجيني ذكر الحدث وأرّخ له بالتحديد سنة575هـ/1179م، إذ تُفيدنا بمعرفة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ببلاد السودان وما جاورها، وهذا ما لم يرد عند البكري، مما يُعزّز أكثر مصداقية الخبر عند الدرجيني، والذي ذكره البكري بالاسم المتداول وهو: المسْلَماني، وهنا يفضلُ البكري على الدرجيني في سبب تسمية الملك بهذا الاسم، وكأنه أورد روايته من أجل تبيان سبب تسمية الملك بهذا الاسم فقط، إذ يقول: "وملكهم يُعرف بالمسلماني وإنما سُمّي بذلك لأن...فوسموا ملوكهم مذ ذاك بالمسلماني"[2]، أي منذ أن حدثت الحادثة مع أبي الحسن الدرجيني صار كل الملوك يحملون اسم المسلماني، في حين أن اسمه الحقيقي قد اختلف فيه المؤرخون، إذ تشير بعض الدراسات التاريخية المعاصرة إلى أن اسم الملك الذي أسلم على يدي الشيخ علي بن يخلف هو: برومندانه من عائلة كايتا[3]، وهو عند ابن خلدون برمندان والذي يرى بأنه أول من أسلم منهم[4].

1- أبو الربيع سليمان الوسياني- كتاب السير- وزارة التراث والثقافة- عُمان- 2009- 566/2، أبو العباس أحمد الشماخي- المصدر السابق- 659/2.

2- أبو عبيد الله البكري- المصدر السابق- ص178.

3- الهادي المبروك الدالي- التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية ق15م إلى بداية ق18م- الدار المصرية اللبنانية- القاهرة- ص121، صلاح الدين المنجد- مملكة مالي عند الجغرافيين والمسلمين- دار الكتاب الجديد- ط2- بيروت- 1982- ص121.

نشير إلى أن الفترة التي تتحدث فيها الرواية كانت سنة575هـ، وبلاد المغرب آنذاك كان تحت حكم الموحدين(542-696هـ/1147-1296م) الذين بسطوا نفوذهم على مناطق شاسعة من بلاد المغرب والأندلس، وكان لهم بصمة كبيرة في تواصل واستمرار التجارة البرية الصحراوية مع بلاد السودان عامة.

2.4.2. الجانب الاقتصادي:

ارتبط انتشار الإسلام في القرن 2و3 و4 للهجرة في غرب إفريقيا بالتجار إلى الحد الذي أصبح من العسير معه الفصل بين الحركتين، مما لا يسمح أبدا بوضع فاصل بين الدور الذي قام به التجار من جهة، وبين العلماء ودعاة الإسلام من جهة أخرى، فإنه غالبا ما يُجمع الدوران في رجل واحد، وهي ظاهرة لم ينفرد بها الإباضية فقط، بل نجدها عند جميع التجار المسلمين برا وبحرا[1]، فقد أفادتنا الرواية –رغم قصرها–على جانب مهم وهو الجانب الاقتصادي السائد في المنطقة في القرن 6هـ/12م، فثراء المملكة بيّن، إذ كان بين يدي الملك 12 معدنا، أي مصدرا لاستخراج الذهب التبر، وهي تجارة رائجة في تلك العهود، وتلك المعادن كانت مختلفة منها النفيسة خاصة، ومنها الأخرى كالفضة والنحاس والحديد وغيرها، وبما أنها تحت يدي الملك فإنها تحت تصرفه وإشرافه ومسؤوليته، استخراجا وتبادلا تجاريا مع القوافل التجارية القادمة من الشمال، والدرجيني بإشاراته القليلة في نصه قد أفادتنا كثيرا، وهو ما لم يذكره البكري وتجاوزه إلى ما حدث بين أبي الحسن والملك.

من جهة أخرى فقد أصاب المملكة قحط شديد، بسبب عدم نزول الأمطار لفترة طويلة، والمنطقة منطقة حارة قريبة من النطاق الاستوائي وهي ذات مناخ مداري أو شبه مداري جاف، والذي يعرف سقوط الأمطار في مواسم محددة، مما دفع بالرعية إلى الاستنجاد بملكهم.

ومن النص أيضا نفهم بأن المورد الزراعي لغالبية سكان المنطقة هو نهر النيل المذكور، حيث الحياة لا تدب إلا به ومنه، وأن أغلب الناس يعيشون من الزراعة وتربية الماشية، من أبقار وغنم وحمير وغيرها، والماء أساسي للزراعة والسقي ومختلف الأغراض، والنيل هنا هو نهر النيجر، حسب الخرائط الجغرافية الحديثة، لكن الغريب أن كُلاّ من أبي عبيد البكري و أبي العباس الدرجيني قد ذكراه باسم النيل، ولا نظن أنهما يقصدان نيل مصر البعيد إلى الشرق، وقد يكون تسمية لنهر النيجر، أو السنيغال اليوم، كما يبدو النظام الطبقي الاقتصادي واضح بين الملك وحاشيته حيث المال والثراء من جهة، وطبقة الرعية من جهة أخرى، بينما العامة فقد كانت تتمثل في صغار تجار و الأغلبية الممارسة للفلاحة وتربية المواشي وهو مصدر رزقها على العموم.

2.4.3. الجانب الديني:

لم يكن الملك مسلما حينما زاره أبو الحسن علي الدرجيني، وهذا واضح من طلبه إياه أن يدعو إلهه، والإشارة إلى شرك الملك والناس أي عبادتهم للأوثان واضحة، (ذبحهم للبقر والغنم والحمير، وغيرها) لما اشتكوا إلى ملكهم ما أصابهم من الجفاف، فأمرهم بالاستسقاء[2]،

4- عبد الرحمن ابن خلدون- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- مراجعة سهيل زكار- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- 2000- 266/6.

1- محمد ناصر- منهج الدعوة عند الإباضية- دار ناصر- الجزائر- 2013- ص299.

2- نجد لصلاة الاستسقاء نظيرا لها عند الوثنيين فهم يصلون من أجل إلههم الكبير الذي يعلو على أوثانهم. أحمد مهدي رزق الله- المرجع السابق- ص150.

فلم يُجدي ذلك نفعا، والظاهرة **التي يلحظها الباحثون في تاريخ انتشار الإسلام في هذه القارة هي استعانة الوثنيين بالتعاويذ الإسلامية مع تعاويذهم الوثنية، والالتجاء إلى شيوخ المسلمين وزيارتهم، بالإضافة إلى كهنتهم الوثنيين**[1]، ثم الطلب الذي قدّمه الملك إلى أبي الحسن للاستسقاء، وكأنه واثق من نجدة ربه له وذلك مما رأى منه من الأخلاق الفاضلة وحسن المعاملة، ونشير إلى أن **لصلاة الاستسقاء نظيرا لها عند الوثنيين فهم يصلّون من أجل إلههم الكبير الذي يعلو على أوثانهم.**

فاشترط أبو الحسن دخولهم للإسلام حتى يدعو ربه، والغريب أن الملك لم يطلب حصول المعجزة أولا ثم دخوله للإسلام، وإنما وافق على شرطه دون تردد فقد كانت له معرفة سابقة بالإسلام، وكان على علم بهذا الدين، زد على ذلك ما اتصف به هذا التاجر من أخلاق عالية وسامية، والثقة التي وضعها الملك في شخص أبي الحسن، جعلت الملك يفكر جديا في الإسلام.

وبعد أدائه للشهادتين وتعلمه الطهارة الجسدية والروحية، وتعليمه الصلاة، انعزلا عن الناس في ربوة عالية، بعيدة عن المدينة حتى يبتعدا عن الرعية، والبيئة بيئة شرك فأكيد أن المعابد منتشرة من حولهما، وحتى يُشعره بالسكينة والطمأنينة، ويُبعده عن جو الأهواء والسحر والشعوذة المنتشرة بين ذويه، فقد عكفا ليلتهما بين صلاة ودعاء، واستجاب الله لهما بعد صلاة الصبح بسحب ممطرة حالت بينهما وبين طريق العودة، حتى جيء لهما بزورق لإجلائهما من المكان، ودامت الأمطار الغزيرة سبعة أيام متواصلة، هذه الظاهرة والكرامة التي جعلت المؤمن يزداد إيمانا، وجعلت الكافر يعتنق الإسلام. ويبدو أنه هناك ترجمانا بين المسلماني والدرجيني، ويُحتمل أنه ترجمان الملك الخاص.

لكن عبارته" فزادت المؤمن إيمانا"، توحي إلينا بأن من الرعية أو الحاشية–وهم الأقلية–من كان على دين الإسلام قبل الحادثة، إما أن إسلامه كان غير راسخ في قلبه، أو أنه كان يخفي إيمانه خوفا من الملك، فبذلك تيقن من أنه هو الدين الصواب، بعد أن شاهد وعاين عدم جدوى الأوثان التي تعبد من دون الله، ورأى المعجزة رأي العين، مما جعله يزداد ثقة بالإسلام.

يضيف الدرجيني إلى أن الرعية كلها اعتنقت الإسلام بدعوة ملكها، بعد أن كان أهلها مشركون، وما كان منهم إلا السمع والطاعة لحاكمهم، أما البكري فيقول أن الملك دخل الإسلام لوحده وبقية الرعية بقيت على الشرك، كما دعا أهالي القرى القريبة في المملكة، فأجاب أكثرهم دعوته، أما الذين رفضوا فقد أعلنوا ولاءهم للملك على أن يدعهم في عبادة آبائهم وأجدادهم، واتخذ قرارا حازما على عدم دخول أي مشرك إلى المدينة، وإلا فمصيره القتل، وأكيد أنه اتخذ لتنفيذ قراره شُرطته وحرسه، وبذلك يمكن اعتبار أن سكان المدينة كان أكبر بكثير من سكان القرى والأرياف، ومن هذا المنطلق فإن عدد المسلمين في المملكة قد صار أكبر بكثير من المشركين.

وبعد ذلك يواصل أبو الحسن تعليم الملك القرآن وأمور دينه وشرائع الإسلام، ومن المؤكد أنه كان يتخذ لذلك ترجمانا، للتواصل بينهما، وحتى تعليمه اللغة العربية، وما لا يسع جهله من الدين، وستتوطد العلاقة بين الملك المسلماني ورعيته المسلمة، من جهة وبين الشيخ أبي الحسن علي بن يخلف، حيث سيتم تعليمه الكثير من فرائض الدين وأحكامه عن طريق إرسال الفقهاء والمشايخ ونشر الكتب الدينية، وتدريس مختلف العلوم الدينية للعامة حتى يفقهوا في دينهم الجديد، كما أن الأمور تتطور إلى تكوين حِلق علم لتعليم الرعية أمور دينهم.

1- أحمد مهدي رزق الله- المرجع السابق- ص149.

بهذه الطريقة استطاع أبو الحسن علي بن يخلف الدرجيني إدخال الملك ورعيته في دين الله، بالمعاملة الحسنة وكسب ثقته، دونما الحاجة إلى سلاح ولا قوة جيش[1]، حتى صار الإسلام هو الدين الرسمي لمملكة مالي، ولم تكتف المملكة باعتناق الإسلام والحرص على مظاهره وتكريم علمائه، إنما أخذت تدعو الوثنيين وتُرسل الدعاة بدورها لنشر الدين بين هذه القبائل[2].

يضيف أبو العباس أحمد الشماخي صاحب كتاب السير، ما مفاده أن الملك ورعيته كانوا على المذهب الإباضي وتعاليمه[3]، أي أنه هو المذهب السائد والغالب في المناطق التي انتشر فيها الإسلام بالسودان الغربي، خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع للميلاد، إذ يقول اليعقوبي عن أقرب منطقة لبلاد السودان وهي زويلة:" أهل زويلة إباضية"[4]، كما يؤكد ذلك الإدريسي أن أول من قام بالدعوة الإسلامية في السودان الغربي قبل وصول الأعداد الكبيرة من أصحاب المذاهب الأخرى فيقول:" أن تجار ورجلان يتجولون في السودان إلى غانة وونقارة وهم وهبية إباضية"[5]. "...وتاجرَ بعضهم بعضا واشترى، أكثره أهل وارقلان"[6]، أي أن العدد المعتبر من التجار الذين يقصدون المنطقة كانوا من ورجلان، التي كانت آهلة بالإباضية، والإدريسي الذي أورد الرواية قد عاش القرن السادس الهجري.

كما **يذكر ابن بطوطة في رحلته أنه وصل إلى قرية زاغري، وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان، ويسمون "ونجراته"، ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج، ويسمون "ضغنغو"، وهو دليل على انتشار مذهب الإباضية بين السكان في قرون متأخرة**[7]، لذا فوجود الإباضية قد امتد إلى أزمنة متأخرة، لكن لم يستمر الوضع كذلك "حتى توافد عليهم المخالفون" من فقهاء المذاهب الأخرى لردّهم إلى مذهبهم، أي ردّ شعوب بلاد السودان المسلمة إلى مذاهب المخالفين، ولم يذكر أي نوع من المذاهب التي جاءت وردّت شعوب المنطقة إليها، وهو بعبارة " فقصدوها من كل أوب"، يقصد أنهم جاؤوها من مختلف مناطق شمال الصحراء، من مصر شرقا وحتى المغرب غربا، ويُحتمل أنه يقصد المذهب المالكي بالذات، والشيعي بدرجة أقل[8]، وحتى الشافعي الذي انتشر في مصر، إذا أخذنا في الحسبان وصول تجار مصر من الشرق، أما المذاهب الأخرى فلم يكن لها حضور يُذكر كالمذهب الحنفي والحنبلي[9].

نستنتج من ذلك أن المذهب الإباضي كان من أوائل المذاهب حضورا وانتشارا في بلاد السودان الغربي، إلى جانب المذهب الصفري، وقد استمر في الوجود فترة ليست بالقصيرة، وذلك عبر الدعاة التجار الذين تعوّدوا بلوغ تلك الفيافي والأمصار، فيما حلّ المذهب المالكي وتغلغل على حسابه مع مجيء المرابطين.

1- أحمد مهدي رزق الله- المرجع السابق- ص126.

2- عصمت عبد اللطيف دندش- دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا 430-515هـ/1038-1121م- دار الغرب الاسلامي- بيروت- 1990- ص135.

3- صلاح الدين المنجد- المرجع السابق- ص121، الهادي المبروك الدالي- المرجع السابق- ص10.

4- أحمد واضح اليعقوبي- البلدان- مطبعة بريل- ليدن- 1890- ص254.

5- محمد بن عبد الله الشريف الادريسي- نزهة المشتاق في اختراق الافاق- تحقيق اسماعيل العربي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-1983- ص24.

6- المصدر نفسه- ص57.

7- صلاح الدين المنجد- المرجع السابق- ص75.

8- مسعود خالدي- المذاهب الإسلامية في ممالك السودان الغربي- مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- مج33، ع1- قسنطينة- 2019- ص686.

9- المرجع نفسه- ص702.

2.4.4. الجانب السياسي:

يُفهم من نص الدرجيني أن مملكة مالي الإسلامية كانت قوية باسطة نفوذها على عدد كبير من المدن والمناطق المجاورة لها، ومشرفة على الأراضي الزراعية ومصادر الذهب، كما أضحت مركزا مهما للتجارة، وتشير المصادر إلى أنها قد نشأت على يد قبائل الماندينجو أو الماندينغ، إثر تفكك وسقوط دولة غانة الوثنية عام469هـ/1076م، على يد المرابطين[1]، وكان النظام الملكي هو السائد في جميع دول وممالك المنطقة، وهو نظام متوارث في العائلة الحاكمة، شأنه في ذلك شأن جميع النظم القائمة في الدول والممالك التي ظهرت في السودان الغربي والأوسط، سواء في عهدها الوثني أو الإسلامي، ويقوم على توريث العرش لابن الأخت، لكن الظاهرة قد اختفت في العهد الإسلامي، وصار الملوك يورثون الحكم لأبنائهم الذكور[2].

وهذا النظام يقوم على الطبقية، حيث الملك والأسرة الحاكمة والحاشية من المستشارين، وكبار الموظفين في البلاط الملكي، والوزراء وقادة الجيش والأشراف، والعشائر المكونة من الرعية، التي تعلن ولاءها وانصياعها التام للملك، كما أن السلطة المطلقة للملك لا ينافسه فيها أحد، إذ بلغ به الأمر لقتل كل كافر يدخل مدينته.

كما أن الإسلام في هذه المنطقة قد ظفر بأقوى القبائل وأعظمها شأنا من السكان المحليين، وأنه هو الذي دعّم مركز الدولة الإسلامية في جميع بلاد السودان، فقد جاءهم الإسلام وهم سادة أوطانهم، يتمتعون بكامل الحرية والسيادة والاستقلال والقوة، ولم يمارس عليهم أدنى أنواع السيطرة والاستبداد[3]، وقد استغلّ أبو الحسن فرصة دعوة الملك له للاستسقاء في دعوته ورعيته إلى الإسلام، من باب الناس على دين ملوكهم.

2.4.5. الجانب الاجتماعي:

نستدل على وجود رابطة بين الملك ورعيته من مجالسه التي يعقدها، فجلوس أبي الحسن مع الملك في مجلس واحد، في عديد المرات، دليل على أنه مجلس استشارة يحضره الخاصة من الناس وكبار القوم، وما جلوس أبي الحسن علي بن يخلف فيه إلى جانب الملك إلا لدماثة أخلاقه التي أُعجب بها، وأكيد أن القضايا المطروحة فيه تخص أمور المملكة عامة، وهذه المرة كانت تخص التجارة والدين الجديد، لكن يبقى السؤال المطروح هو: هل كان قدوم أبي الحسن بين يدي المسلماني بدعوة شخصية منه؟ أم برغبة من التاجر الفقيه؟، فسياق العبارة لا يشير لا إلى الطرح الأول ولا إلى الطرح الثاني، فالرواية بدأت مباشرة بحضور الدرجيني في قصر المسلماني، وهكذا وردت عند كليهما، ويُحتمل أن هناك علاقة قديمة ووطيدة بينهما خاصة ومع السكان عامة، إذ أن تعجب الملك وجلوسه إلى جانبه، يدل على أن أبا الحسن قد تعوّد على ذلك منذ مدة.

إن إكرام الملك لأبي الحسن العزّابي –حسب الرواية– يدل على أن هناك تعارفًا أو معاملة مسبقة بينهما، أو أنه قد سمع عنه، وأن هذه ليست المرة الأولى التي يقدم فيها الدرجيني تاجرا وداعيا إلى المنطقة، إلا إن كانت حاشية الملك هي من مهّدت لقدومه، وأخبرت الملك بصفاته وأخلاقه العالية.

1- سفيان عابد- المرجع السابق- ص152.

2- أحمد مهدي رزق الله- المرجع السابق- ص188.

3- المرجع نفسه- ص210.

ومن الرواية نلحظ عزم أبي الحسن على المغادرة بعد أن "قضى حاجته"، والحاجة هنا هي التجارة من بيع وشراء لمختلف البضائع والسلع، ضف إلى ذلك دعوة الملك إلى الإسلام الذي جاء من أجلها، ودعوة الملك دون الرعية فيه نوع من الذكاء الذي استعمله التاجر الإباضي، وهذا ما سيظهر في باقي الرواية.

عن تميم بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "الدين النصيحة"[1]، بهذا الحديث انطلق الشيخ أبو الحسن علي بن يخلف، في دعوته التي استطاع فيها تحقيق ما لم تحققه جيوش الفتح الإسلامي لبلاد المغرب طيلة قرون، فمعاملاته التجارية من بيع وشراء، جعلت الناس ترتاح إليه لأخلاقه الإسلامية العالية، ولسانه الطيب، فقد كان سمحا إذا باع وسمحا إذا اشترى، كما اتصف بالصدق والأمانة، التي تعامل بها الرسول ﷺ في تجارته مع خديجة، حتى أن قريشا وصفته بالصادق الأمين، وسار الشيخ أبو الحسن على خطاه ووفق تلك الصفات التي جعلت قلوب زبائنه تطمئن له، وتأتمنه في أموالها بيعا وشراء، وبذلك تمكن من القدرة على التأثير فيهم[2]، قبل دعوتهم إلى الدين الحنيف، وهذا دأب التاجر المسلم، وبهذه الطريقة وصل الإسلام إلى أقاصي الأرض شرقا وغربا.

لم يكن التجار الإباضيون يحملون معهم فقط سلعهم وبضائعهم، إنما كانوا مثقلين بأفكارهم ومبادئهم، التي يبثونها حيثما حلوا وأينما ارتحلوا، فطريق مسيرهم طويلة وتستغرق أياما وأشهرا، ولهم فيها محطات توقف للراحة والاستجمام وهي فرصة لغرس أخلاق الإسلام ونشره في تلك المناطق، كما أنهم تركوا بصمة مادية في تلك البلاد النائية تمثلت في العمران وبالأخص العمارة الدينية منها، فقد لاحظ الباحث الألماني جوزيف شاخت تشابه الطراز المعماري في بناء المساجد والصوامع بين ورجلان ومزاب بنظيرتها في بلاد السودان الغربي[3] في مناطق عديدة، فالبساطة هي السمة الغالبة على مباني الإباضية، تلك السمة التي أخذها عنهم مسلمو بلاد السودان، ولا تزال آثارها ماثلة إلى يومنا.

- **خاتمة:**

أغفلت الكثير من المصادر والمراجع التي تُعنى بالإسلام في بلاد السودان الغربي في العصور الوسطى، الروايات الإباضية كمصدر هام في موضوع دور الإباضية في نشر الإسلام- جهلا أو تجاهلا- مما يجعلها تحيد عن النزاهة العلمية التي تتطلبها الكتابة العلمية الأكاديمية.

أدى استقرار الإباضية على أطراف الصحراء الشمالية في واحات فزان وجبل نفوسة وغدامس وورجلان منذ ق2هـ/8م إلى ارتباطهم القوي بتجارة الصحراء عن طريق القوافل التجارية جيئة وذهابا نحو بلاد غانة ومالي، طلبا للرزق الحلال ونشراً للإسلام فيها.

قام الشيخ أبو الحسن علي الدرجيني بخدمة جليلة للإسلام، وذلك بسيرته المثالية حتى بلغ بمفرده، ما عجزت عنه الجيوش الجرارة لمحاربة الشرك والوثنية، فلم يكن مجرد تاجر فحسب بل داعية إلى الله مثّل أنموذجا للداعي الإباضي خادم الإسلام والمسلمين، وهو من العزابة أي من الفقهاء والمشايخ الكبار الذين لهم معرفة وعلم بأمور الدين، فالمصادر الإباضية وغيرها تشير إلى هذه الحقيقة التاريخية المرتبطة بالتجارة، إذ بينت هذه الدراسات أن الإباضية لم يكونوا تجارا فحسب بل كانوا من أوائل من نشر الإسلام في هذه الربوع

1- رواه مسلم- صحيح النسائي- رقم4210.

2- صالح باجية- المرجع السابق- ص91.

3- محمد ناصر- المرجع السابق- ص305.

الجديدة منذ وقت مبكر، تلك المناطق التي سادتها الوثنية لعقود طويلة، وإن لم تستفض في ذكر التفاصيل، مما يُرجّح ترددهم الدائم لهذه الربوع، مشايخا وفقهاء(عزّابة)، فضلا عن عامة التجار.

هناك اختلاف بين المؤرخيْن البكري، والدرجيني في ما إذا كان ملك مالي الذي يدعى: المسلماني قد أسلم على يد داعية وفقيه إباضي أم غيره، وبالتالي مدى صحة الرواية الواردة لديهما، وقد رجّحنا صحة ما ذكره الدرجيني في طبقاته من أنه جده أبو الحسن علي بن يخلف، والعامل المشترك بينهما أنه أسلم وحسن إسلامه وإسلام شعبه.

وبالمحصلة فقد انتشر الإسلام في بلاد السودان الغربي عن طريق المسلمين على فترات، وكانت:

-**الوسيلة**: هي التجارة، فحصّل التجار بذلك ربحين، أحدهما مادي وقد فاضت الأموال بين أيديهم، وآخر ديني وهو الهدف الرئيس لهم خدمة لدينهم وأخراهم، متمثلين قول الرسول ﷺ "لأن يهدي الله رجلا على يديك خير مما طلعت عليه الشمس أو من حمر النعم".

-**المنهج**: انطلاقا من الآيات الكريمة: "**لا إكراه في الدين**"، و"**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**"، "**ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**" التي كانت منهاجهم في الدعوة إلى سبيل الله، فكانوا جنودا سلاحهم الرفق واللين وحسن المعاملة والأخلاق، وما أحوج بلاد الإسلام اليوم إلى إعادة النظر في الفكر الإقصائي والتهميشي للمجتمعات الإسلامية، ونبذ العنف والقوة جانبا.

-**النتيجة**: "**ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا**" وهذا الهدف الذي كان يرمي إليه الدعاة، فاستطاعوا بأخلاقهم الحميدة دعوة الناس خاصتهم وعامتهم، ولم يفرقوا في ذلك بين ألوانهم وأجناسهم وقبائلهم، فكلهم لآدم وآدم من تراب.

ترك الإباضية آثارا فكرية وثقافية وحضارية عمرانية في المناطق التي نشروا فيها الإسلام، ولازالت فئة معتبرة منهم على المذهب الإباضي إلى يوم الناس هذا، كما نجد بعض التشابه في العمران، مثل صواع مساجدهم، كما أنهم أحيوا تلك المناطق اقتصاديا وماديا ودفعوا بعجلة التنمية فيها.

اهتم الشيخ علي بن يخلف بدعوة الملك إلى الإسلام، قبل دعوة الرعية التي انقادت طواعية إلى دين ملكها، والناس على دين ملوكهم، ورغم صبغة الكرامة في رواية الدرجيني والبكري، إلا أنها فعلت فعلتها في الشعوب والأمم الحديثة عهد بالإسلام، فبساطة العقيدة الإسلامية جعلت الكثير من الشعوب تعتنق الإسلام طواعية.

وموضوع الإسلام في بلاد السودان الغربي بحاجة إلى بحث معمق، ودراسات علمية وأكاديمية جادة، في الجامعات ومخابر البحث، وعقد ملتقيات دولية، فالمستشرقون الأوروبيون قد سبقوا إليه ببحوثهم ومقالاتهم، وبعض استغل تلك المعلومات لأغراض خاصة، وأهل مكة أدرى بشعابها، فالأولوية للمؤرخين المسلمين لتأكيد الحضور الإسلامي قبل المسيحي للمنطقة.